بمعاملتهم السيئة ليوحنا فباؤا بإثمهم وكفّروا عن ذنبهم الّا البعض منهم الذين ماتوا موتًا وحيًا وعُوقبوا بعقاب اليم . ثم نُقل جسم القديس من قبره في كرمانة الى القسطنطينيّة بمظاهر جليلة تقاطرت اليها كل سكّان تلك الاصقاع . ثم نُقلت هذه الذخائر الثمينة بعد ردحة من الدهر الى رومية العظمى فجُعلت في كنيسة القديسين بطرس وبولس الفاتيكانيّة بجانب ضريحهما دلالةً على وحدة الشرق والغرب في الايمان والرجاء . وكان يوحنا اعظم ساعٍ لهذه الوحدة فلم يشأ الله ان يفرقهُ في مماتهِ عن هامتي الرُّسل ليكون ضريحهُ ضامنًا اكيدًا لرجوع الخراف الضالّة الى حظيرة المسيح فتصير الرعيّة واحدة كما الراعي هو واحد

حفلة عرس

في عشائر الشركس (١)

خرَّجها بتصرُّف الاديب لبيب افندي مشحور استاذ الفصاحة في كليّة القديس يوسف

حدَّث احد الرسلين الكاثوليك قال : بعث اليَّ يومًا وانا في طرقات شيخ احدى عشائر الشركس الضاربة في الضواحي يدعوني لحضور حفلة زواج اخيه . وكانت تربطني واياه روابط الصداقة الحميمة والحب المتبادل . فكرهت ان ارفض دعوتهُ واهمّتني نفسي لما انا عليه من الانقطاع عن العالم فتذكرت ما قالهُ احد مشاهير الكتبة : « لا بد للمرسل في تلك الاصقاع من التحبُّب الى العشائر واكتساب مودَّتها ليتمكن من عمل الخير بينها »

فتذمَّمت وركبت وركب اخ لي في الرهبنة له المام بالطبّ وسرنا في ليلة مقمرة الى عشيرة العروس حيث تبتدئ الافراح وبيننا وبينها مسيرة ست ساعات . وكان فصل الخريف قد بدت تباشيرهُ فحسنا بقشعريرة البرد ثم ثارت ريح صرصر فالتحفنا بالفراء واخذنا نتغنى في جوف الليل ونتمتَّع على ضوء القمر برأى جبالٍ تمتد في سفحها غابات صنوبر علت رؤوسها صفرة الخريف بينما كانت افراسنا تلتهم المفاوز تحت قمقمة سياطنا وتنشب سنابكها في الصخور وتصهل فتردّد الاصداء صهيلها

---

(١) اختصرنا هذه النبذة عن مجلّة المباحث

A. Poidebard : *Une noce tcherkesse*, Etudes, 1907, 20 Novembre.

ولم تكن هذه اول اسفارنا في تلك البقعة وبمثل هذه الساعة فكم طفناها على ظهور الجياد نعود مرضى الشركس وجرحاهم . وهم قوم تعوّدوا الحرب دأبهم شنّ الغارات وركوب الضوامر واللعب عليها . هاجروا موطنهم القفقاس على اثر حروبهم المتواصلة مع اهل بلادها فأحلّتهم الدولة العليّة في بر الاناضول فاقاموا بها محافظين على كل عوائدهم وابسهم ولغتهم يتشون لهوينا بين مجاوريهم ويدهم على مقبض خناجرهم المحلاة بالفضة والذهب متمنطقين بالمسدسات وعلى رؤوسهم قلنسوات من الصوف الاسود وعلى جباههم تلوح سمة البسالة والنبل امّا شيخ تلك العشيرة فهو شاب في مقتبل العمر تزينه شريف حاف وقومهُ الّا يبرح صديقًا للمرسلين الكاثوليك رغمًا عن اختلاف الجنسيّة لما لقي من تفانيهم وصدق حبهم . فلم اشأ بردّي لدعوة القوم تنغيص فرحهم سيما وانهم يعدون حضورنا زيادة شرف للعشيرة كلها

ولما بدت طلائع الفجر لشرفنا على القرية واذا هي غارقة في سكون تام . ولم نرَ الّا بعض نساء خرجنَ يستقين فتنحينا الى جانب القرية وطرقنا بيتًا منفردًا لنكون بمعزل عن حلبة الافراح نراقب الحفلة ولا نكون منها فاترلنا رب البيت على الرحب والسعة . ولا شيء عندهم ارفع من الضيافة واخبرني انّ صديقي الخا العريس أتى منذ ثلاثة ايام مع ثلاثين من فرسان عشيرته ليسيروا في موكب العروس ويقيموا الالعاب والافراح المعتادة .

وما عتمت القرية ان انبعثت من رقادها ودبّت الحركة والحياة بها فاخذت الات الطرب تعزف على ايقاع واحد ونغمة بسيطة يتاطعها بعد طلقات بارود وتصفيق وتهليل

ولما ذاع خبر وصولنا تقاطرت الينا الارضى والجرحى زرافات زرافات فابتدأنا بهم عملًا بالواجب . ثمّ استدعيت صديقًا لي قديمًا اسمهُ اسمعيل الخا فاسررتُ اليه : اني اتيت بوسادة مطرّزة وبندقيّة للصيد بصفة الهدية فتهلّل فرحًا وقال : احسنت كل الاحسان فتلك عادة رؤساء العشائر ان تحمل هدية دلالة على رضاها وهم يجلّونها محلّ الاعتبار . فقر رأي الرؤساء على اقامة سباق خيل تعطى الوسادة للسابق . اما البندقيّة فتهدى الى العريس

وما كان الّا هنيهة حتى انتشر خبر الهدية وكان القوم مجتمعين في الساحة يلعبون

بالسؤال على ابي العروس ليزوّج ابنتهُ شيخهم وهو يتظاهر بالرفض واذا باسمعيل قد طلع عليهم فصاح: سماع يا قوم اتانا حضرة الاب بهديّة سنيّة. فاكبروها وتقدّم عميدهم الى الوسط ورمى بقلنسوتهِ الى الجو علامة طربهِ وانقطع لهذا النبأ مجادلات القوم واذعن ابو العروس للطلب

*

وعند اصيل النهار ابتدأت الالعاب فعلونا شرفة دار تطلّ على الحلبة ومكثنا ساعتين نتمتع بمناظر ومشاهد والعاب تحير العقول خفّةً ولباقة وظرفاً . وكانت منازل القرية متفرقة تمتدّ في سفح جبل عالٍ وامامها سهول واسعة تنتهي الى نهر هو بمثابة حاجز طبيعي لتقص عليهِ الفرسان في السباق

فامتطى للحال عشرون من الشبّان صهوات خيولهم وتقدّمهم فارس بيدهِ علم فلكز جواده وسار كالبرق الخاطف وتبعهُ الفرسان حتى وصلوا الى اكمة تشرف على النهر فانحدروا والحصى تتطاير وتتدحرج وسنابك الخيل ترتق حتى خلنا انهم ساقطون في النهر ورجف لمنظرهم القلب فلم نرَ الّا وقد صعدوا على الضفة المقابلة وعادوا الى الملاحقة والسباق

ثم عقب ذلك العاب فكان الفارس منهم يتمسك بالسرج باليد الواحدة وينقلب فيغير بفرسهِ ورأسهِ مرتفع فويق الارض ورجلاهُ في الهواء وكان الاخر يسير شوطاً بعيداً على جناح السرعة وهو منتصب على ظهر فرسهِ او يضع رجلاً في الركاب ويلوي الاخرى خارجاً ويجري كانهُ جالس على مقعد في الارض لا يهتز ولا يضطرب. ورأينا من لباقتهم ورشاقتهم عجباً فانهم كانوا يمرّون مرور السهم على متون جيادهم فاذا بهم قد انحنوا الى الارض وتلقّفوا بَيْضاً وُضع على الحضيض ومنهم من كان يُطير البيض شعاعاً برصاصة من مسدساتهم . ونظرت شابين ركضا حتى تحاذيا فحاول الواحد اقتلاع الاخر من سرجهِ واذ لم يفلح تأخر عنهُ فقبض على ذنب حصانهِ عند اصلهِ حتى تمكّن منهُ فقفزه بشدّة ومهارة عجيبة فلوى الحصان والفارس معاً وتذف بهما الى مسافة بضعة امتار الى الوراء رغماً عن سرعتهما

ولما تعب الفرسان خلّفهم الاولاد فركبوا الخيل ودفعوها في الميدان يتسابقون ويلوون اعنتها بخفّة كيفما شاؤوا وارجلهم خارج الركابات لقصرها. وكان بجانبي أحد المشايخ

فابديت له تعجبي فقال: عند ما يبلغ الصبي الرشد عندنا نُركبه فرساً جموحاً فيتشبث به والفرس يطفر ويقفز ويركض محاولاً طرح الفتى عن ظهره. ونداوم على ذلك مدة. وبين الف صبي لا يُقتل اثنان فلا يبلغ الفتى العاشرة الّا وهو فارس خيّال

وعند المساء اجتمع المدعوون واصطفّوا على شبه دائرة وابتدأت حفلة الرقص. فوقف الشبان من جهة والفتيات من جهة مرتديات بثياب ضافية مطرقات الى الارض ادباً فاشار متقدّم الحفلة الى فتاة فضربت على القيثارة لحناً شركسياً شجياً ثم تقدمت اخرى الى الوسط واخذت تتنقّل في الساحة كانها لا تطأ الثرى وجسمها منتصب لا يهتز وهي تأتي بحركات لطيفة ادبية بذراعيها فقط فدارت حول القوم. والرقص عندهم ان تسير الفتاة بلا اضطراب ولا انزعاج « كما يسيل الماء » وعيناها مطرقتان الى الارض لا ترفعهما ابداً. اما الفتى فيرفع الرأس باتقة وحميّة ويحرك الذراع الواحدة ويسند الاخرى تارةً على مقبض خنجره وطوراً على خاصرته. فيتتابع الراقصان ويمشيان القهقرى ويقتربان دون ان يمسّا بعضهما بعضاً. ثم فينضمّ اليهما زوج آخر يفعل فعلهما

وبينما الموسيقى تتابع نغماتها الشجية الرخيمة على ايقاع التصفيق وحركات الراقصين سُمع بغتةً طلق ناري دوى له البيت وتبعهُ تهليل وصيحات. فنظرنا واذا برئيس الحفلة انتهز فرصة مرور احدى الراقصات امامه فاطلق رصاصة امام وجهها. وهي عادة عندهم وربّما اطلقها بين ارجلها فلا تضطرب الفتاة ولا ترفع الحاظها ولا تحرّك جفونها وقد أُخبرت انّ فتاةً جُرحت يوماً في رجلها بلا تعمّد فصبرت على الالم وكملت الرقص حتى سال الدم ورآهُ الحاضرون فاثنوا على جلَدها واحتملوها خارجاً. وهكذا تتعود النساء مرأى الدماء ومعاناة الشدائد والحرب فيصبحنّ وهنّ اشد بأساً من الرجال

ولمّا انقرط عقد المجلس وارفضّ الجمع المحتشد آب كلٌّ الى مضجعه ونام والاحلام والاشباح تتزاحم في مخيّلته

*

اصطبحنا في الغداة نداوي الجرحى والمرضى مدة بضع ساعات حتى كان الظهر فأُخبرنا ان الموكب اوشك ان يسير لمرافقة العروس فصعدنا على الشرفة المعهودة فرأينا عجلتها عند باب البيت يزينها وشاح ابيض مزركش وحولها كوكبة من الفرسان يتحدّثون بجلبة على متون جيادهم. فخرجت العروس وركبت مع رفيقاتها العجلة

فسارت بهنَّ على نغم الموسيقى ثم عادت ثلاثاً امام باب الدار لتودّع الفتاة مرّة اخيرة بيت ابيها. ثم اخذت الخيل تتابع الجادّة رويداً رويداً فما قطعت شوطاً قصيراً حتى برز لمامها رهط من رجال عشيرتها متلحين بقضبان طوال فانصبُّوا على الموكب يضربونهُ قاصدين ايقافه ومنع هجة العروس من المرور فاندفعت واندفع الفرسان تحت الضرب وقد احنوا ظهورهم حتى جاوزوا القوم ثم توقفوا عند مدخل القرية وصاح اهل العشيرة: لن تمرُّوا ان لم تكسروا البيض الموضوع على الارض. فاطلق فرسان عشيرة العريس لخيلهم الاعنة وصوَّبوا مسدساتهم الى البيض فاطاروها في الهواء

وطلع بعدها الموكب الى السهل وامتدَّ في انحائهِ ترفُّ فوقهُ اجنحة السرور والبهجة. والعادة عندهم ان يثأر اهل العروس ممن يأخذونها وذلك بسلبهم قلنسواتهم فكنت تراهم يتتابعون ويتسابقون في الميدان لاختطافها ونظرت فارساً لستلب قلنسوة بعضهم فطاردته اربعة من الفرسان فدار حول القرية واخذ يجوب تلك الوهاد والاكام تارةً يصعد واخرى ينحدر والجنادل تتطاير تحت سنابك جيادهم. ولم تكن ساعة حتى ادركه فارس واوشك ان يقتامه من السرج فاذا به قد انقلب وحصانه على الحضيض فصفَّق الجميع استحساناً وهلّلوا للغالب. اما المغلوب فقفز بخفة واستوى على ظهر حصانه دون ان يصاب بأذى. فركبنا عندئذٍ نحن ايضاً وسرنا بمعزل عن الموكب نراقب كل ما يجري ولا نشارك القوم وبعد ساعة اراد اهل العروس الرجوع الى قريتهم فطلبوا من قبيلة العريس ناقة اخرى فاخذوا منديل العروس ولفُّوه ووضعوه على الارض فركض فارس واطلق رصاصتين فخرق المنديل بحذق فصاح الكل: عافاك الله وترجلوا فتودعوا وتصافحوا وعاد فرسان العروس الى منازلهم

بعد الفراق سكنت الضجة وخفَّت الالعاب والحركات فتقدمت العجلة الموكبَ وانضم شمل الفرسان فاتيناهم وسرنا بينهم نتحدث بهدوء وسكينة وكنَّا قد اشرفنا على قمة الجبل الفاصل بين العشيرتين فرأينا الاولى اوشكت ان تغيب تحت جناح العتمة والثانية انفرجت من بين الادغال كلما اقتربنا منها بانت لنا بيوتها المتفرقة كانها قطع حجارة مشكوكة بين الخضرة والاشجار ودوى في الجبال صوت طلقات البارود وسمعنا آخر غوغاء التهليل من بعيد ولم يعد لنا سوى ان ننحدر من قمة الجبل الى سفحه لنحلَّ في نادي العريس. وكانت الشمس قد مالت للمغيب فاصفرَّت رؤوس الاحراج وامست

قطع الغمام الشاردة في كبد السماء تخطّطها خطوط حمراء كمدة اللون ولم يُسمع الّا خرير ماء يجري هناك على تغم واحد يقاطعهُ وقع حوافر الخيل وصهيلها. حينئذٍ طرق اذاننا غناء رخيم شجيّ شقّ الصدور وارتفع في اول ظلمة الليل فشنّف برقّته المسامع وقد جاشت بقلوب هؤلاء الفرسان التذكارات ومرّ بخاطرهم ايامهم السالفة في القفقاس مسقط رأسهم فحيّوها من بعيد

ايا ربوع الوطن ايا ربوع الوطن

ليس حياة وهنا ليس سرور هنا
تبكي دماً أعيُنُنا على ربوع الوطن

وعندما حطّ الموكب عند مدخل القرية استقبلهُ احد المشايخ وطلب من الفرسان نافذة لادخال العروس في عشيرتها الجديدة. واضطروهم ايضاً الى ان يكسروا بيضاً موضوعاً على الحضيض بالرصاص. ثم اطلقوا اعنّة الخيل حتى ادركوا بيت العريس وعليهِ اعلام الزينة تخفق فخرجت اليهم ام العريس وقالت: لمَ اتيتم وما تريدون منّا فلا حاجة لنا بكم. ثم أغلقت الباب فاندفع ستة فرسان وأوثبوا خيلهم فوق صوان الدار فاحتلّوا صحنها وسُمع من داخل طلقات رصاص متتابعة وصراخ. حينئذٍ رأينا رئيس الحفلة ركب قربوس حصانه واسرع الى الباب فنطحهُ جوادهُ براسهِ ففتحهُ ودخل فصاحت بهِ الأم ثانية ما تريد منا فاجاب: اتيناكِ بعروس لابنك. فقالت: لا بأس. انما لا اقبلها ان لم يؤدِّ ابني البكر عن اخيهِ العريس اجازة المرور ثم عادت هي واهل بيتها فصفّت على الحضيض امام الدار بيضاً يكسرهُ الداخلون باطلاق الرصاص

لكنّ جواد مقدّم العشيرة ابى ان يطاوع صاحبه تعباً ووهناً فلم يتمكّن الامير من كسر البيض ضرباً بالرصاص الّا بعد شق النفس. حينئذٍ سلّمت ام العريس لرئيس الحفلة قضيباً لفّت عليهِ النقد الجميلة. واخذت ترمي الى القوم ملبساً وحلويات تشير الى رضاها بالعروس الجديدة في بيتها

فترجل الجميع ودخلوا البيت وابتدأوا بالرقص تاتية توقعهُ الآت الطرب وتصفيق الايدي وغناء لحن شجي رقيق يرددون بهِ حيناً بعد حين لازمةً عن لسان الفتاة تدعى «شكوى العروس»

يا والدتي يا اخوتي قد سرتُ نحو الغربة

يا ما امرّ وحشتي من بعدكم احبتي

كم حملٍ ونجعةٍ عند ابي للسرقةِ
فيا قساة الهجـةِ خلّوا سبيل الابنةِ

اصبو الى عشيرتي ومنزلي وروضتي
اصبو الى والدتي ووالدي واخوتي

هذا وقد وفدت سكان القرى المجاورة للعرس فكنت ترى بين الشركس قومًا من الروم والتركمان كل بلبسهِ وزيهِ المختصّ بهِ . فحضرنا الى قاعة الاستقبال فسلّمنا على القوم ثم تركناهم وعدنا الى غرفة منفردة اعدّها لنا رئيس العرس في طرف الرواق تلطّفًا بنا واحترامًا لعوائدنا وآدابنا . وللغرفة باب يؤدي الى الجنينة نخرج اليها كلما شئنا . وكان على الباب عبدٌ شاكي السلاح لا يُدخل علينا الّا الاخصّاء من الاصحاب والاصدقاء وقد هرعوا للسلام علينا والترحيب بنا متذكرين ما بذلناه ولم نزل نبذله في سبيلهم من التفاني وهم يعدّون حضورنا بين ظهرانيهم في تلك الظروف شرفًا لهم . فكنت تراهم يفدون وحدانًا وزرافات ووجوههم باسمة ولسان حالهم يقول : نحن غرباء ههنا ولا احد يفتكر بنا ويحترم عوائدنا الّا انتم . اجل فان بين الشركس وبين جيرانهم تفاوتًا في العادات والأزياء والافكار واللغة وخصوصًا في الآداب وهو امر معجب . فاننا في مدة الحفلات لم نسمع كلمة ولم نرَ حركة تخدش جبين العذراء او تأنف منها الخدّرات

ولمّا ارخى الليل جلابيبه الحالكة اوينا الى فراشنا ونحن نسمع مدة بعد اخرى نشيد الشركس الوطني خارجًا من قاعة الرقص يتغلغل بين اشجار الجنينة . فكأن بهِ ارواح ابناء القفقاس ترفّ تحت جناح الظلام وترتفع الى النجوم المتلألئة في كبد السماء

اللازمة

ايا ربوع الوطنِ انتِ اعزّ مكنِ
نفديكِ بالارواح حبـــًا يا ربوع الوطنِ

ليس حياة وهنا ليس سرور ههنا
تبكي دمًا اعيُننا على ربوع الوطنِ

تقول ابناء الحمى لمَ ارتحلتم ولمَا
لم تحرقوا دوني الدما عند كرود الحزنِ

انتم اعفاء البنين حملكم حمل الجنين
ربيتكم طول السنين ارضعكم من لبني

حتى اذا صرتم رجال اشد من اسد الدحال
أركبتكم متن الرحال وغبتم عن اعيني

ألا اسمعوا صوت الجدود عظامهم وسط اللحود
تئن من هذا الصدود وتشتكي من حزني

هجرتموني للدهور يا قوم ما هذا الغرور
اجاز في شرع الضمير ان تكفروا بالمنن

ذنب ثقيل في الذنوب غمته كل الشعوب
ومهجتي كادت تذوب فرحة للوطن

يا وطنًا لم ننسكا يا وطنًا لم تنسكا
ارواحنا تبقى لكا وجسمنا للكفن

*

ولما كان صبح اليوم الثاني اخذنا اهبة السفر لمبارحة العشيرة لعدم امكاننا حضور كل الحفلات التي تقام مدة اسبوع كامل فاستدعينا اسمعيل وطلبنا اليهِ ان يحمل هديتنا الى العريس ويبلغهُ دعاءنا لهُ بالرفاء والبنين . والتمستُ من صديقي الامير ان يتلطف بالسلام على السيدة والدتهِ فاتت ربَّة البيت بنفسها الينا وجلست تحدثنا ساعة ثمَّ قالت : كيف اعبّر لكما عما شعاني من السرور لمَّا أنبئتُ انكما غادرتما الليل منزلكما لتحضرا حفلاتنا واعيادنا . اجل كنتُ اعدُّكما منذ زمن كاعزّ اولادي فكان تلطفكما هذا مؤيدًا لحبي ولصدق نيتي وظنوني بكم . وكنت اود ان تحضرا حفلةً لا يحضرها الَّا الاخصاء والاقرباء حفلة نشر جهاز العروس . ولكن لا بأس فسأقيم من يثوب عنكما

قالت ثمَّ مدَّت يدها فصافحناها كعادة الافرنج وشكرنا لها لطفها وانسها واعدنا لها دعاءنا برفاهيتها وهناء العروسين واستأذنَّا بالذهاب فشيعتنا وابنها وبعض الاصدقاء . ثمَّ امتطينا الجياد واشرنا اخر لشارة الوداع وسرنا

وبعد بضعة ايام اتى ديرنا احد الامراء يزهو بالملابس المزركشة شاكي السلاح التام متمنطق بالرصاص فاستدعاني قوانيتهُ في قاعة الاستقبال ورحبت بهِ فقال : دونك ايها الاب الجليل ما يهديكه العروسان من جملة ما اهدياه لاعضاء العائلة

فرأيت بعض قطع حيكت بالقصب وحمائل مسدَّس، ومحفظة للساعة مع قدتها ثمّ كيساً للنقود من الجلد الاسود تمشت عليهِ العروس يدهـا تلطفاً صليباً احمر صغيرًا . فكان بودّي ان ارفض تلك الهدايا كما هو دأبنا لكني خفتُ ان اجرح حاسيات القوم فقبلتها شاكرًا للطف اصحابها

ولم ازل محافظاً على هذا الكيس كذخيرة ثمينة أودعت بها قلوب تلك العشيرة الشريفة كل ما تحتويه من اللطف والنبل والشهامة

اللغة العربية

في طور النشوء والتكوُّن (*

لحضرة الاب انستاس الكرملي

١ تمهيد

قبل ان نخوض عباب هذا البحث الجليل يحسن بنا ان نعرف شيئين يتعلقان بهذا الموضوع وهما: معنى الطور ومعنى العصر

فالمراد بالطور هنا (وبالفرنسية période) مدَّة من الزمان يغلب فيهـا طوارئ غير طوارئ المدة التي تقدَّمتها. يعني انها المدَّة التي تختلف حالتها وهيئتها عن حالة وهيئة المدَّة التي سبقتها . واما العصر (وبالفرنساوي époque) فهو المدَّة او الدهر الذي يحدث فيهِ عدَّة طوارئ خفيفة الوطء او النتيجة بحيث لا تخرجهُ عن حالتهِ الاصليَّة. فاذا عرفنا ذلك نقول:

تُقسم اللغة العربيَّة الى اربعة أطوار والى اربعة أعصر فاما الاطوار فهي:

(١ً طور النُشوء والتكوُّن) وهو الطور الذي نشأت فيه اللغـة العربيَّة مع اخواتها الساميَّات في اصل وضعهـا من عُنصُر ثنائيّ الحروف ثمّ تدرَّج شيئاً فشيئاً فصار ثلاثيًّا ثمّ رباعيًّا الخ

(٢ً طور النُشوّ والتاوُّن) وهو طور تباين اللغات واللهجات وتفرُّعها وتفرُّقها

(*) ننشر هذه المقالة كما ارسلها حضرة كاتبها دون ان نبدي فيها رأينا تاركين العهدة فيها لصاحبها الفاضل (المشرق)